

مظاهر الإرهاب خلال الغزو الحبشي لببلاد العرب

أ.م. د. شاكِر محمود إسماعيل

جامعة ديالى

المقدمة

الحمد لله الذي لا يحمد على شيء سواه والصلاة والسلام على اشرف الأعراب
والعجم محمد الأمين المبعوث رحمة للعالمين والصلاة والسلام على آل بيته الأطهار
وصحبه الأبرار . أما بعد ...

فقد بدأت مظاهر الإرهاب منذ المراحل الأولى للبشرية بقصة قابيل وهابيل
المعروفة ولم يتوقف الإرهاب إلى يومنا هذا ، وتمثلت صورته بعدة أشكال ونماذج أخطرها
ما هو دموي وقاتل ، ومنها ما كان إرهاباً دينياً تمثل بتعصب لديانة ما أو لطائفة ما على
سواها ، ومنها ما كان ثقافياً ، وغير ذلك من صور الإرهاب المختلفة ، فهو صراع بين
الخير والشر، وهو صراع بين الحق والباطل، ولكن الأدهى والأمر أن يدعي كل طرفي
الإرهاب أو الصراع الحق لنفسه .

وقد اخترنا في هذا البحث المتواضع صورة من صور الإرهاب التي وجدناها
واضحة في غزو الأحباش لبلاد العرب قبل الإسلام ، إذ تمثل الإرهاب في تلك الغزوة
بصورة جلية ، تلك الغزوة التي كانت أهم ما تهدف إليه هو القضاء على المركز الديني
المقدس لدى العرب قبل الإسلام إلا وهو الكعبة ، وبالتالي القضاء والسيطرة على أكبر
مركز اقتصادي في شمال شبه الجزيرة العربية وتحويله إلى الجنوب في اليمن
التابع إلى الحبشة .

واقترضت طبيعة البحث تقسيمه إلى عدة مطالب سنتناول في أولها الترابط الجغرافي
بين اليمن والحبشة ، إذ كان اليمن البوابة التي تدخل منها القوافل العسكرية والتجارية إلى
بلاد العرب، وبعد ذلك سنتطرق إلى أسباب وتاريخ الغزو الحبشي لبلاد اليمن ، إذ
سنستعرض من خلاله صور الإرهاب التي رافقت حادثة الأخدود المعروفة التي تمثل اشد
صور الإرهاب الدولي ، وأخيراً سنتناول حملة الأحباش إلى مكة بقيادة أبرهه وسنستعرض
الأحداث التاريخية التي رافقت تلك الحملة ، فضلاً عن صور الإرهاب فيها ومحاوله أبرهه
الحبشي هدم الكعبة والاعتداء على أهل مكة أصحاب الحرم المسلمين ، وهذا يمثل صورة
عالية من صور الإرهاب الذي خذله الله وحده .

جغرافية الحبشة وبلاد العرب :

الحبشة اسم أطلقه الجغرافيون القدامى على المنطقة الموجودة في أفريقيا الشرقية الواقعة بين البحر الأحمر ونهر النيل ، وذلك على اسم إحدى القبائل اليمنية التي هاجرت إلى المنطقة عن طريق مضيق باب المندب الواقع في أسفل بحر القلزم (البحر الأحمر)^(١) .

وترتبط الحبشة عن طريق باب المندب مع شبه الجزيرة العربية التي تقع في الركن الجنوبي من القارة الآسيوية بين درجتي ١٢ و ١٣ درجة من خطوط العرض ، ودرجتي ٣٥ و ٦٠ درجة من خطوط الطول ويحدها البحر الأحمر من جهة الغرب ويحدها كل من خليج عدن والمحيط الهندي من الجنوب ، ويحدها كل من خليج عمان والخليج العربي من الشرق^(٢) .

وكانت تطلق على اليمن في العصور التاريخية القديمة تسمية معين وسبأ لدى أكثر الباحثين بناءً على أشهر ممالكها ، وأول مملكة يمنية ازدهرت حضارتها كانت مملكة معين في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية وذلك في حدود ١٣٠٠ . ٧٠٠ ق.م ، والبعض يحدد بداية هذه المملكة في الألف الثانية قبل الميلاد ، وقد ازدهرت معين في جوف اليمن وعاصمتها (قرناو) وهي الموضع المسمى اليوم معين ، بين نجران وحضرموت وشملت في عهد ازدهارها جميع جنوب شبه الجزيرة تقريبا وامتدت حتى الحجاز شمالا ، أما مملكة سبأ فكان موطنهم في جنوبي شبه الجزيرة في الزاوية الجنوبية الغربية منها ، وكانت عاصمتهم (مأرب) تقع إلى الشرق من صنعاء بحدود ٦٠ ميلا، والسبأيين ورثوا عن المعينيين مملكتهم وسلطانهم ، وقد اشتهرت بلاد اليمن بالتجارة وبمشاريعها الزراعية ، فضلا عن تجارة البخور والعطريات^(٣) .

(١) هنري س . عبودي : معجم الحضارات السامية ، (بيروت : مطبعة جروس برس ، ١٩٩١م) ، ص ٣٤٠ .

(٢) احمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ، (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٧ م) ، ص ٦ .

(٣) احمد سوسة : مفصل العرب واليهود في التاريخ ، (بغداد : دار الحرية ، ١٩٨١م) ، ص ٨٧٦ .

ويذكر انه كانت هناك منذ العصور القديمة علاقات تواصل حضاري تمثل بعلاقات تجارية واجتماعية ودينية وثقافية بين بلاد الحبشة وبلاد اليمن كونهما يرتبطان بممر مائي واحد وهو مضيق باب المندب الذي تتقارب فيه ضفتي البحر الأحمر من جنوبه جدا^(٤)، إذ يصبح ممر مائي سهل لعبور الموجات البشرية إلى الجانبين إلى درجة يسهل معها لمن يقف على احد شاطئيه رؤية مرتفعات الشاطئ المقابل ، وقد أغرى هذا القرب الجغرافي بين البلدين فضلا عن التشابه في طبيعة الأرض والمناخ أهل اليمن منذ القرن السابع قبل الميلاد بالهجرة إلى ارض الحبشة لأسباب اقتصادية أو اجتماعية^(٥) .

وكان واحد من مظاهر هذا الاتصال الحضاري هو هجرة بعض القبائل العربية الجنوبية إلى الحبشة كما ذكرنا ، ومنها قبيلة (حبشت) العربية التي أطلق اسمها على المنطقة وعرفت باسم (بلاد الحبشة) نسبة إلى اسم هذه القبيلة ، وكذلك قبيلة (اجعازي) التي أطلق اسمها على لغة أهل الحبشة فأصبحت تعرف بـ (اللغة الجعزية) نسبة إلى اسم هذه القبيلة^(٦) .

ولقد نشأت لهجات محلية عديدة في الحبشة من اللغتين الرئيسيتين اللتين ذكرناهما منها التكرائية والامهرية و الامهرية فضلا عن لهجات أخرى اقل استخداماً ، ويذكر أن اللغة الحبشية بلهجاتها تشترك مع اللغة العربية في عدد من المفردات ولاسيما في العصور القديمة^(٧) .

(٤) عبد المجيد عابدين: بين الحبشة والعرب ، ص ٢٢٧ .

(٥) محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، ص ١٦٧ .

(٦) عامر سليمان: اللغة الاكديّة(البابلية – الاشورية)تاريخها وتدوينها وقواعدها، ص ٨١.

(٧) -Moscati and Others, An Introdduction to the Comparative Gramar of the Semetic Languages , London, p,142 .

تاريخ وأسباب الغزو الحبشي :

لقد انطلق الغزو الحبشي لبلاد العرب حسب أرجح الروايات في العام ٥٢٥م وذلك في عهد حكم الملك اليميني ذي نواس الذي تسميه المصادر العربية الإسلامية يوسف ذي نواس^(٨) في حين تسميه المصادر الأثرية والكتابات القديمة باسم (يسف اسار)^(٩) ومن المحتمل أن التقارب اللفظي بين اللغات العربية القديمة السبب وراء تحول اسمه إلى يوسف ، أو أن اعتناقه الديانة اليهودية هو السبب وراء ذلك .

وقد كان هذا الملك على الديانة اليهودية ، وانه قد صادف في مدة حكمه انتشار الديانة النصرانية في بلاد اليمن وكانت مدينة نجران ، التي قال عنها ياقوت " نجران من مخاليف اليمن من ناحية مكة " ^(١٠) ، مركز للديانة الجديدة والتي كانت ديانتها قبلها ديانة وثنية إذ كانت تدين لنخلة طويلة ، ولكن بعد انتصار الديانة النصرانية على الديانة الوثنية ، والتي انتقلت إلى بلاد اليمن من بلاد الشام عن طريق بعض الرجال الصالحين^(١١) ، قرر الملك ذي نواس الذي ملكه اهل اليمن عليهم بعد أن خلصهم من حاكم متسلط عليهم قد قتل خيارهم وكان امراً فاسقاً يعمل عمل قوم لوط يقال له (لختيعة تنوف شناتر) ^(١٢) ، قرر أن يقضي على النصارى من أهل مدينة نجران وسار إليهم بجيش كبير إذ أنهم يعدون السبب وراء ازدياد النفوذ الحبشي في اليمن ، فهم على ديانة واحدة .

فدخل مدينة نجران وخيرهم بين ترك ديانتهم والدخول في اليهودية أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخذ لهم الأخدود وألقى فيه الحطب والنار ثم جمع الناس وقال لهم من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في ذلك الأخدود ، فحرق من حرق في النار وقتل من قتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم قريبا من

(٨) ابن الأثير ، ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، (ت ٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ ص ٣٣٤ ؛ ابن

كثير ، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل القرشي الدمشقي ، (ت ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ، ص ١٤٤ .

(٩) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص ٤٦٢ .

(١٠) ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبدالله الرومي البغدادي ، (ت ٦٢٦ هـ) : معجم البلدان ، ص ٣٧٣ .

(١١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، مج ١ ، ص ٣٢٨ .

(١٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

عشرين ألفاً^(١٣)، وقد جاء ذكر هذه القصة المروعة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)﴾^(١٤)، والتي تمثل قمة الإرهاب، وإنما الصورة الأولى من صور الإرهاب التي تواجهنا من خلال دراسة أسباب الغزو الحبشي لبلاد العرب .

وقد كان من بين أكثر المشاهد قساوة في هذه الصورة من صور الإرهاب التي ذكرتها المصادر ، هي قصة تلك المرأة المؤمنة وأبنائها الثلاثة وأصغرهم الرضيع الذي بين يديها ، إذ قال لها الملك : ارجعي عن دينك وإلا قتلتك أنت وأولادك ، فأبت ، فألقى ابنها الكبيرين فأبت ، ثم أخذ ابنها الرضيع ليلقيه في النار ، فهمت بالرجوع ، فقال لها ابنها الرضيع : يا أماه لا ترجعي عن دينك لا بأس عليك ، فألقاه وألقاها في أثره ، وهذا الطفل احد من تكلم صغيراً^(١٥)، أن هذا البطش والإرهاب في هذه الصورة يمثل أكثر مظاهر التعصب الديني التي وجدناها شاخصة للعيان تدلل على التعسف الديني الذي وصل إلى درجة الموت حرقاً في النار ، لا لشيء إلا لأنهم امنوا بدين سماوي موحد ، فهم مسلمين ولم يعلنوا العداة لأحد ، فأى إرهاب هذا .

ويذكر احد الباحثين أن السبب الذي دفع ذو نواس إلى هذا الفعل الإرهابي هو الروح القومية ، فهو يقول : الذي يلوح لنا أن ذا نواس كان يمثل الروح القومية في البلاد فرأى في النصرى من مواطنيه ما يذكره بحكم الأحباش المسيحي البغيض فخذ لهم أخذوداً وصنف لهم القتل فمنهم من قتل صبراً ومنهم من أوقد له النار في الأخدود فألقاه فيها ويقال انه لم ينجُ منهم احد^(١٦) ، بينما يذكر باحث آخر أن السبب الذي دفع ذو نواس إلى حادثة الأخدود هو التعصب الديني الذي حركه فيه اليهود الآخريين والذين وجدوا أن أبناء دينهم اليهود في بيزنطة كانوا يعاملون معاملة سيئة من النصرى هناك^(١٧) ، وهذه من الاستنتاجات الواردة ، إلا أن الذي يبدو جلياً أن هذا الملك

(١٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٧٤ .

(١٤) سورة البروج ، اية ٤- ٧ .

(١٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، مج ١ ، ص ٣٣٢ .

(١٦) فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) ، (بيروت: ١٩٤٩م) ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(١٧) نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، ص ٩٦ .

خاف على سلطانه من الدين الجديد لاسيما ارتباطه وتواصله مع دين بلاد الحبشة، الأمر الذي دفعه إلى فعل ذلك .

وذكرت المصادر أن رجلا من أهل نجران نجا من هذه المذبحة يعرف بـ (دوس ذو ثعلبان) على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نؤاس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم ، وذلك لأنه نصراني على دينهم ^(١٨)، فقال له قيصر : بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك ، فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره ، فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلا يقال له (أرياط) ومعه من جنده أبرهه الأشرم ، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ^(١٩)، في حين يذكر الطبري أن الحملة كانت بقيادة أبرهه وبعد أن احتل اليمن لم يرسل للنجاشي شيء من غنائمه وخيراتها فأرسل إليه أرياط بجملة ثانية وحدث بينهم صراع على الزعامة ^(٢٠)، وسار إليه ذو نواس في قبائل حمير اليمنية ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجه فرسه في البحر حتى أفضى به إلى غمرة في البحر فأدخله فيها ، فكان آخر العهد به ودخل أرياط اليمن وملكها ^(٢١)، ومن غير المعقول أن تتمكن مملكة حمير اليمنية الصغيرة الوقوف بوجه الزحف الحبشي الكبير المدعوم من البيزنطيين ، وبهذا انتهت هذه المملكة من التاريخ بسنة ٥٢٥م كما ذكرنا حسب أرجح الروايات ، والتي يعتقد المؤرخين أنها ترجع بتاريخها إلى سنة ١١٥ ق.م ^(٢٢) بهذه الصورة من الإرهاب الدولي المعطى بغطاء ديني .

(١٨) الطبري ، ابي جعفر محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، ص ٣٦٢ .

(١٩) الأزرقى ، ابو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد ، (ت ٢٥٠ هـ) : اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، ص ١٠٣ .

(٢٠) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ١٤٤ .

(٢٢) جواد علي : المفصل ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

ويذكر المستشرق الأجنبي (ول ديورانت) أن حادثة الأخدود كان الفرصة المناسبة للإمبراطور البيزنطي جستنيان لتحقيق مأربه على اعتبار أن روما حامية للديانة النصرانية ، فضلا عن سعيه إلى ضم اليمن لملكه ، فكتب إلى نجاشي الحبشة ، الذي سرعان ما أرسل حملته الكبيرة إلى اليمن التي أنهت حكم ذو نواس فيها^(٢٣).

وقد تمثل في حملة الأحباش إلى اليمن صور كثيرة من صور الإرهاب ، إذ أن قائد الحملة أرباط وخليفته أبرهه ، كان عليهم تحقيق وصية النجاشي لهم فقد أمر أرباط بالآتي: إن أنت ظهرت عليهم فأقتل ثلث رجالهم وخرّب ثلث بلادهم وأسب ثلث نساءهم وأبنائهم^(٢٤)، وبعد دخول أرباط ارض اليمن نفذ هذه الوصية وأوغل في التنفيذ ، وأذل أهلها وبعث إلى النجاشي بثلث نساءها وأبنائها وهدم قلاعها وحصونها ، وقد كان هذا التكنيل بأهل اليمن دلالة على صور مشددة في الإرهاب الذي رافقه تعصب ديني وقعت جريته على أهل اليمن الأبرياء الذين كانوا يدافعون عن بلادهم ليس إلا ، ووقع عليهم هذا التكنيل والتشريد .

وقد استمر أرباط في حكم بلاد اليمن مدة طويلة من السنين ، وكان حكمه بقساوته المعهودة ضد أهلها ، يمثل العديد من صور الإرهاب ، فقد نهب خيراتها وأذل أهلها واستهان بديانتها ، وقد انعكست صور الإرهاب في الاحتلال الحبشي لبلاد اليمن بالصراعات السياسية العسكرية التي يقع وزرها بالدرجة الأولى على أهل البلد الحقيقيين الذين يزجون قسرا في هذه المعارك والصراعات ، فقد حدث صراع سياسي بين قائد الجيش الحبشي في اليمن أرباط وأبرهه اللذين تنازعا على الزعامة في اليمن فاختلف أهل الحبشة في اليمن إلى فئتين ، وقسمت بلاد اليمن إلى مجموعتين تقسيما إجبارياً أرادته المحتل الحبشي وقد عانى أهل اليمن من هذا التقسيم عناءً كبيراً ، وبعدها اتفق أرباط وأبرهه على المباراة الفردية وجها لوجه على أن تؤول القيادة إلى المنتصر في هذه المباراة^(٢٥)، وكان أرباط طويل القامة وأبرهه قصير القامة مملوءاً وقد اتفق مع غلامه عتوده أن يمنع ظهره ، وكانت النتيجة أن شق أرباط وجه أبرهه بحربه كانت معه فشرمت حاجبه وعينه

(٢٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ص ١٠٠ .

(٢٤) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

وانفه وشفته ، وبذلك سمي أبرهه الأشرم ، وحمل عتوده على أرباط وقتله وتحولت الحبشة في اليمن إلى أبرهه ، الذي غضب عليه نجاشي الحبشة لأنه قتل عامله على اليمن، إلا انه عفا عنه بعد أن قدم له اعتذاره بان حلق شعره وأرسله مع تراب من بلاد اليمن دليلاً على خضوعه للنجاشي ، فكتب إليه النجاشي أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري^(٢٦).

وقد استمر أبرهه يحكم اليمن بقساوة المحتل وتعرض أهلها إلى الإرهاب المستمر، كيف لا وهو الذي قتل قائده من اجل السيطرة والسلطة فتعرضت البلاد بسبب ذلك إلى الحروب الطويلة بينهما ، وقد كان من بين صور الإرهاب الأخرى التي يندى لها الجبين والتي تتعارض مع قيم الإنسانية والأنفة العربية هو ذلك الوعد الذي منحه أبرهه إلى غلامه عتودة بعد أن قتل خصمه أرباط كمكافأة له ، فقال له : ما حكمك يا عتودة بعد أن قتلت ما ديتك ، أي : ما تطلب ، فقال عتودة : حكمي أن لا تدخل عروس من أهل اليمن على زوجها منهم حتى أصيبها قبله ، فقال له أبرهه : لك ذلك، فاستمر عتودة على هذا الحال إلى أن قتله رجلاً حليماً من حمير أو خثعم وكان شريفاً ورعاً في النصرانية^(٢٧)، وان هذا العمل الإرهابي المتمثل بالاعتداء الجنسي لعدد كبير من المتزوجات لم يسبق له مثيل في التاريخ من قبل شخص محتل متجبر .

وبعد أن عفا النجاشي عن أبرهه وقبِلَ اعتذاره قرر أبرهه أن يبني له كنيسة لم يُرى مثلها في زمانها في الأرض ، وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة بذلك : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها ملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حاج العرب^(٢٨)، ويذكر أن أبرهه استدلل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وسخرهم فيها أنواعاً من السخر ، وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة ، وجعل ينقل لها من قصر بلقيس رخاما وأحجاراً وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة ، وجعل ارتفاعها عظيماً واتساعها باهراً^(٢٩)، وإن أسلوب تعامله مع أهل اليمن

(٢٦) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .

(٢٧) الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مج ١ ، ص ٣٣٤ .

(٢٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

في بناء هذه الكنيسة فيه الشيء الكثير من الإرهاب والتنكيل ولاسيما أسلوب قطع اليد لأي شخص يتأخر عن العمل .

غزو الأحباش لمكة :

وبعد أن تحدثت العرب بكتاب أبرهه إلى النجاشي غضب رجل من قبيلة كنانة العربية فقدم اليمن ، فدخل إلى كنيسة أبرهه التي تسمى القليس ، وقعد فيها وتغوط ، ثم لحق بأهله ، فأخبر بذلك أبرهه وقيل له : انه فعل رجل من أهل البيت الذي تحجه العرب بمكة غضب لما سمع انك تريد صرف الحجيج عنه ففعل هذا ، فغضب أبرهه وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه ، وأمر أهل الحبشة في اليمن فتجهزت وخرج معه الفيل واسمه (محمود) ، الذي بعثه إليه النجاشي ، وقيل كان معه ثلاثة عشر فيلاً^(٣٠) ، ثم أن أبرهه أمر أهل اليمن بالحج إلى القليس ، وتوج محمد بن خزاعي على قبيلة مضر وأمره أن يسير في الناس ويدعوهم إلى حج القليس^(٣١) ، أن إجبار أهل اليمن والعرب على الحج إلى القليس هو نوع من انواع الإرهاب الديني الذي يمارسه أبرهه والمتمثل في إجبارهم على دين معين وعلى إجراء طقوس دينية غريبة عليهم ، محاولاً بذلك القضاء على المكانة الدينية والاقتصادية للكعبة في مكة قبل الإسلام ، وتحويل أنظار العرب إلى القليس في اليمن .

لقد قاد أبرهه الحملة إلى مكة بنفسه وذلك بحدود سنة ٥٤٧م كما ذكر ذلك احد الباحثين بناءً على نقش يماني يشير إلى أن أبرهه قام في هذه السنة بحملة على بلاد بني عامر وهي من مخاليف مكة النجدية على مسافة ثمانين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقي من الطائف^(٣٢) ، وان صحة هذه الرواية فيكون حكم الأحباش لليمن إلى غزو مكة قد استمر اثنان وعشرون سنة .

(٣٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٣١) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٣٢) جواد علي : المفصل ، ج ٣ ، ص ٤٩٨ .

وكان لاستخدام الفيل في هذه الحملة اثر كبير في نفوس العرب حتى أنهم أصبحوا يورخون بهذا العام، إذ أن من التقاليد المعروفة لدى العرب قبل الإسلام هو التأريخ بأبرز حادثة تقع في السنة، وان هذه الطريقة من التأريخ مأخوذة من الحضارة العراقية القديمة إذ أرخ السومريون بحادثة الطوفان في العصر الحجري القديم بحدود الألف الرابع قبل الميلاد^(٣٣).

وبطبيعة الحال أن العرب وعلى عكس الكثير من الأمم لم يألفوا القبيلة لذلك فقد هالهم كبر حجمه مما كان لهم وقع في نفوسهم^(٣٤)، ويبدو أن العرب اليمانيين لم يرق لهم ما كان يعترم أبرهه القيام به وهو هدم الكعبة المقدسة التي كانت لها مكانة كبيرة في نفوسهم، لذلك بدأت محاولات رفض هذا النوع من الإرهاب الديني التخريبي الذي يهدف إلى هدم قبلة أهل اليمن والعرب جميعاً، فقد خرج إليه أولاً رجل من أشرف اليمن وملوكهم يقال له (ذو نفر الحميري) فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى التصدي لإرهاب أبرهه الجديد، وتصدى له من كان معه، إلا أن قوة أبرهه بجيشه الكبير وبفيله تمكن من التغلب على ذو نفر واخذ أسيراً^(٣٥).

ثم تصدى له نفيل بن حبيب الخثعمي فقاتله وأصحابه ، إلا أن أبرهه انتصر عليه أيضاً وأخذه أسيراً ، وقد أراد أبرهه قتل الاثنين إلا أنهما توسلا به أن يبقي على حياتهما وأنهما سيكونان عوناً له فاستبقاهما^(٣٦)، أن هذه الحملة ومرورها بهذه القبائل العربية وما تعرض له جراء ذلك من نهب لخيراتهما وإجبار أهلها بتقديم الطعام والشراب لهذه الحملة التي تريد هدم اعز مقدسات هذه القبائل هو قمة في الإرهاب لقبائل بدوية مسالمة .

(٣٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص ٣٣٣ .

(٣٤) الازرقى : اخبار مكة ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٣٥) ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري ، (ت ٢١٣هـ) : السيرة النبوية المعروف بسيرة ابن هشام ، ص ٣٠ .

(٣٦) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

وبعد أن وصلت هذه الحملة إلى الطائف التي سمعت بأخبارها قبل وصولها وقد هالتها قوة هذا الجيش ، ولاسيما وهو معه الفيل هذا الحيوان العملاق الذي لم تعتاد العرب على مشاهدته ، أعلنت هذه المدينة استسلامها لأبرهة وأرسلت له وفدا يمثل قبيلة ثقيف برئاسة (مسعود بن معتب بن مالك) فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد (يقصدون بيت اللات في الطائف) إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم^(٣٧) ، وأرسلوا معه (ابو رغال) الذي دله إلى الطريق إلى مكة وأوصله إلى المغمس القريبة من مكة ، فمات أبو رغال هناك ، والعرب ترجم قبره ، فهو القبر الذي يرممه الناس بالمغمس^(٣٨) ، ويصف بعض الباحثين طريقة استسلام ثقيف لأبرهه بأنها خيانة أو تعاون على هدم الكعبة المقدسة^(٣٩) ، لذا أصبحوا مثل للخيانة وسبة من القبائل الأخرى^(٤٠) ومن المحتمل جدا أن عدم تكافؤ القوى بين أبرهه وبين أهل الطائف هو الذي دفعهم إلى هذا التعاون معه ، لاسيما بعد ما جرى لهما لذو نفل الحميري ونفيل الخنعمي من هزيمة على يد جيش أبرهه ، فيبدو أنهم وجدوا أن هزيمتهم حتمية في حالة المواجهة مع أبرهه وربما تتعرض مدينتهم إلى التدمير ، كل ذلك دفعهم إلى انتهاج أسلوب المهادنة مع هذا الغازي الغاشم .

وأصبحت مكة هي هدفه الأخير ، فقد انتهج أبرهه مع مكة أسلوب جديد تمثل في إشاعة الإرهاب والرعب لأهل مكة لما لها من مكانة كبيرة في نفوس القبائل العربية ، إذ أرسل مجموعة من جيشه قامت بالسطو على أموال أهل مكة وسرقة ماشيتهم وكانت بقيادة (الأسود بن مقصود الحبشي) وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير مكة وسيدها ، فهتم قبائل قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم من سائر الناس بقتاله ، وبعد أن عرفوا أن لا طاقة لهم بقتاله ، تركوا ذلك^(٤١) .

(٣٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص ١٤٦ .

(٣٨) الطبري: تاريخ الطبري، ج١، ص ٣٦٦ .

(٣٩) خالد العسلي: دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، ص ٥١ .

(٤٠) ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٤ .

(٤١) الطبري: تاريخ الطبري، ج١، ص ٣٦٦ .

وقد لجأ أبرهه إلى طريقة المهادنة والمفاوضات وذلك لإقناع أهل مكة بالاستسلام وعدم الوقوف بوجهه لهدم الكعبة ، فقد ارسل (حناطة الحميري) إلى مكة فقال له : سل عن سيد قريش وقل له اني لم أتِ لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تمنعوا عنه فلا حاجة لي بقتالكم ، وان لم يرد حربي فاتني به ^(٤٢)، دخل حناطة الحميري إلى مكة وسأل عن سيدها ودلوه على عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فجاء إليه وقال له ما أمره أبرهه ، فرد عليه عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم ، فأن يمنعه فهو بيته وحرمة وان يخل بينه فو الله ما عندنا من دفع عنه ، فقال له حناطة : فانطلق معي إلى الملك فانه قد أمرني أن آتية بك، فانطلق معه عبد المطلب مع بعض من بنيه ، فلما وصل عبد المطلب إلى معسكر الأحباش سأل عن ذي نفر لصداقة بينهما ، فلما أتاه طلب منه أن يرشده فيما حل به وبأهل مكة ، فأجابه ذو نفر : إجابة الأسير وأرشدته إلى سائس الفيل الذي كان صديقا له واسمه (أنيس) ^(٤٣) ، وانه طلب منه التدخل في الموضوع ، فلما جاءه قال له ذو نفر: يا أنيس أن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت ، قال : افعل ، واستأذن أنيس لعبد المطلب من أبرهه وأوصفه بعبارات المدح نفسها التي كان قد سمعها من ذي نفر ، وكان عبد المطلب رجل عظيم وسيم جسيم ذو هيبة في نفس من يشاهده ، فما أن قدم على أبرهه حتى اجله وأكرمه ، وان أبرهه نزل من على سريره وجلس على بساطه واجلس عبد المطلب بجواره وطلب من ترجمانه أن يسأل عبد المطلب عن حاجته ، فقال عبد المطلب : حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي ، فتعجب أبرهه من حاجة عبد المطلب تلك فقال له عن طريق ترجمانه : قد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ثم زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ، فقال له عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وان للبيت رب يحميه ، قال : ما كان ليمن مني ، قال له

(٤٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، مج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤٣) الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

عبد المطلب : أنت وذاك أردد لي إبلي ، فرد أبرهه أبل عبد المطلب ، وخرج إلى قريش واخبرهم بما حصل وطلب منهم الخروج من مكة والحماية في شعب الجبال والشعاب ، ثم قام عبد المطلب فاخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجيشه ، فقال عبد المطلب وهو اخذ بحلقة باب الكعبة وانشد شعراً^(٤٤) :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهم حماكا
أن عدو البيت من عاداكا امنعهم أن يخربوا قراكا

ثم قال أيضاً^(٤٥):

لا هم أن العبد يمن نع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالمهم عدوا محالك
ولان فعلت فانه أمر تتم به فعالك

وكان أبرهه ينوي ربط الكعبة بالسلاسل الحديدية وسحبها بالفيل ، وهم بتحريك الفيل من المغمس إلى مكة ، الا أن الفيل برك في المغمس ولم يتحرك ، ونخسوه بالرماح ولم ينهض ، وذلك بأمر الله الذي حفظ بيت نبيه إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم) ، ثم بعث الله جل في علاه الطير الأبايل على جيش أبرهه كل طير يحمل ثلاثة أحجار تتساقط على رؤوسهم ولم ينج منهم ثغر^(٤٦) ، إلا نفر قليل ، فقد ولو مذعورين وهرب أمامهم الفيل ، وقد تفشى بهم وباء الجدري ، وعاد أبرهه إلى اليمن يجر أذيال الهزيمة الإلهية البينة ، وقد توفي بعد عودته بمدة قصيرة وذلك بحدود سنة ٥٧١م^(٤٧).

(٤٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص ١٤٦.

(٤٥) الطبري: تاريخ الطبري، ج١، ص ٣٦٧.

(٤٦) ابن هشام: سيرة ابن هشام، ج١، ص ٣٢.

(٤٧) المسعودي، ابو الحسن علي (ت٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص٨٦.

وقد وثق الله في كتابه العزيز هذه الصورة الخالدة من صور الإرهاب في قوله تعالى (ألم ترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) (٤٨)، أن قمة ما وصل إليه الإرهاب في غزو أبرهه لبلاد العرب هو محاولته الخاسئة في هدم الكعبة المشرفة، تلك المحاولة التي أفلها الله جل في علاه لأنها بيته المطهر الذي وجد على المعمورة قبل نبيه إبراهيم الخليل (عليه السلام) وقد يرجع إلى تاريخ ابونا آدم (عليه السلام) والله اعلم .

لقد كانت مدينة مكة مدينة دينية مسالمة قبل الإسلام وبعد انتشاره ، وقد جاءت محاولة أبرهه هدم الكعبة لتعبر عن أبشع صورة من صور الإرهاب ، وهنا يبدو أن الدافع الاقتصادي كان من بين أهم العوامل بعد العامل الديني الذي دفع أبرهه الحبشي إلى غزو مكة ومحاولة هدم البيت الحرام ، ومع أن أبرهه كان يحمل لواء دين سماوي كما يدعي إلا أن الله قد وقف بوجه إرهابه لأهل تلك المدينة الخالدة التي كانت مقراً للديانة الحنيفية ديانة نبيه إبراهيم الخليل (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) .

(٤٨) سورة الفيل : الآية ١- ٥ .

الاستنتاجات والتوصيات :

بعد انجاز هذا البحث المتواضع الذي اختار مفردة صغيرة ولكنها مهمة وكبيرة في مدلولاتها التاريخية والسياسية ، التي تتناول موضوع الإرهاب وتعارضه مع حقوق الإنسان في العصور القديمة ، فقد توصل البحث إلى عدد من الاستنتاجات والتوصيات :

١ . لقد كان الغزو الحبشي لبلاد العرب بجميع تفصيلاته صورة واضحة من صور الإرهاب في العصور القديمة .

٢ . لقد انتهجت أساليب بشعة من أساليب الإرهاب في هذه الحملة بدءاً من السبب الرئيس لهذه الحملة المتمثل بحادثة الأخدود وما رافقها من أساليب متنوعة إلى محاولة أبرهه هدم الكعبة المقدسة بالفيل .

٣ . ظهر جلياً من خلال دراسة هذه الحملة وجود ظاهرة التعصب الديني المقيت في العصور القديمة ، التي تكاد تفوق التعصب الديني الدخيل في الوقت الحاضر .

٤ . إن السبب الرئيس والمعلن لهذه الحملة هو الدافع الديني ، إلا انه يبدو كان هناك دافع اقتصادي يكاد يكون منافساً للدافع الأول ، تمثل في رغبة الأحباش بالسيطرة على بلاد العرب من اجل السيطرة على معظم الطرق التجارية .

٥ . لقد تجسدت صور الإرهاب في هذه الحملة بصورة واضحة وكان اشد صورها إلقاء أهل مدينة نجران ولاسيما تلك المرأة المؤمنة وأطفالها الصغار في النار ، فضلاً عن محاولة أبرهه الحبشي هدم الكعبة المقدسة لدى العرب باستخدام الفيلة وإرعاب القبائل العربية وإرهابهم بها .

٦ . توصي هذه الدراسة المتواضعة بدراسة مظاهر الإرهاب في التاريخ القديم الذي تعددت إشكاله وصوره ، من خلال الاعتماد على الكتابات والنقوش القديمة .

المصادر

- القرآن الكريم .

- ١- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، (ت ٦٣٠ هـ) : الكامل في التاريخ، تحقيق : أبي الفداء عبد الله القاضي ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧١م) .
- ٢- احمد سوسة :مفصل العرب واليهود في التاريخ،(بغداد:دار الحرية ، ١٩٨١م).
- ٣- احمد فخري :اليمن ماضيها وحاضرها ، (القاهرة: معهد الدراسات العربية،١٩٥٧م) .
- ٤- الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن احمد ، (ت ٢٥٠ هـ) : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، تحقيق : عبد الملك عبد الله دهيش ، (مكة المكرمة : مكتبة الاسدي ، ٢٠٠٣م) .
- ٥- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، (بيروت : مكتبة جرير ، ٢٠٠٦م) .
- ٦- خالد العسلي : دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام والعهود الإسلامية المبكرة، إعداد وتحقيق : عماد عبد السلام رؤوف ،(بغداد :دار الشؤون الثقافية ، ٢٠٠٠م) .
- ٧- الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير ، (ت ٣١٠ هـ) : تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، (بيروت : دار الأميرة، ٢٠٠٥م) .
- ٨- طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، (بغداد :دار الوراق، ٢٠٠٩م) .
- ٩- عامر سليمان : اللغة الأكديّة (البابليّة - الآشوريّة) تاريخها وتدوينها وقواعدها، (الموصل : دار الكتب ، ١٩٩١م) .
- ١٠- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، (القاهرة : مطبعة السعادة ، د.ت) .
- ١١- فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) ، (بيروت : ١٩٤٩م) .

- ١٢- ابن كثير ، عماد الدين ابي الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي ، (ت ٧٧٤ هـ) :
البداية والنهاية ، تخرّيج : احمد بن شعبان ومحمد بن عيادي ، (القاهرة :
دارالبيان، ٢٠٠٣ م) .
- ١٣- محمد عبد القادر بافقيه : تاريخ اليمن القديم ، (بيروت : المؤسسة العربية، ١٩٧ م)
- ١٤- المسعودي ، أبو الحسن علي (ت ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن
الجوهر، (بيروت : دار الفكر، ١٩٧٣ م) .
- ١٥- نبيه عاقل : تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي ، (دمشق : مطبعة جامعة
دمشق ، ١٩٩٢ م) .
- ١٦- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافري ، (ت ٢١٣ هـ) : السيرة
النبوية المعروف بسيرة ابن هشام ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، (القاهرة :
١٩٧١ م) .
- ١٧- هنري س . عبودي : معجم الحضارات السامية ، (بيروت : مطبعة جروس برس،
١٩٩١ م) .
- ١٨- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة : محمد بدران، (القاهرة : مطبعة لجنة
التأليف والترجمة ، ١٩٦٤ م) .
- ١٩- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله الرومي البغدادي ، (ت ٦٢٦ هـ) :
معجم البلدان ، تقديم : محمد عبد الرحمن المرعشلي ، (بيروت : دار إحياء التراث
العربي ، ٢٠٠٨ م) .

20- Moscati and Others, An Introdduction to the - Comparative
Gramar of the SemeticLanguages , London .